رؤيـــــا شريعـــتي

٢-٥

عبد الجبار الرفاعي

شريعتي

أدرك شريعتي انه اجترح دربا لم يمهد من قبل لدى الدارسين في ديارنا، فالدراسات الاسلامية في الحواضر العلمية المعروفة، وكليات الدراسات الشرعية تستعين بالمناهج والأدوات الموروثة، ولاتتقن، وربما تخشى، التعاطي مع مناهج العلوم الاجتماعية الحديثة.
ولعل روح الاقتحام التي اتسمت بها شخصية شريعتي، هي ماحفزه على السير في ذلك الدرب، والمغامرة بالمضي فيه حتى النهاية، بالرغم من الهجاء البالغ القسوة الذي تعرض له، وشتى ألوان التهم، وفتاوى تفسيقه وضلاله، انه كان مدركا بما يحف بمغامراته من مخاطر، ومايكتنفها من مزالق، باعتباره يدشن نمطا جديدا في دراسة الدين والاجتماع الاسلامي، مستندا الى مفاهيم ومناهج مختلفة، فقد تحدث عن ذلك بصراحة: (أهم درس استطيع ان اعطيه لطلابي كمعلم، هو ان عليهم، لأجل معرفة عميقة بالدين، انتهاج سبل العلماء غير المتدينين، بل المناهضين للدين، او حتى من كان ينشد محاربة الدين، انا أسلك هذا السبيل، وأتحدث بنفس اللغة المندة بالدين، والمتنكرة لدعائمه الغيبية، تحت عناوين: علم الاجتماع، والاقتصاد، وفلسفة التاريخ، وعلم الانسان، اني أتحدث بهذا المنهج الذي اعتبره أفضل المناهج لمعالجة المسائل العلمية والانسانية، انه المنهج ذاته الذي نهجته اوروبا منذ القرن الثامن عشر، لدراسة مشكلاتها الانسانية بجميع أبعادها، ومناوآة الدين في المجتمع، سوف أعالج الدين حتى من منظور طبقي اقتصادي، لكن بموضوعية، ومن دون تعصب وتحيز مااستطعت).
لقد حسم شريعتي خياره، وقرر استخدام المناهج الغربية في دراسة الدين والاجتماع الاسلامي، ولم يتوقف عند الجدل الواسع الذي لم يزل محتدما، حول مشروعية دراسة الدين والمجتمعات الاسلامية، بمناهج مستوردة من أديان ومجتمعات اخرى، فبدلا من اصطفافه بجنب أحد فرقاء الصراع، واستنزاف تفكيره في التدليل على مشروعية أولا مشروعية ذلك، بادر لحشد مختلف المناهج في دراساته، ولم يتردد في انتقاء واستخدام أي مصطلح او مفهوم، يحسبه مناسبا لحقل بحثه، وكأنه، بمقامرته هذه، أراد القول: ان السبيل الأمثل لاختبار المناهج وادواتها هو بتطبيقها مباشرة على ميادين معينة، وان اكتشاف ماتتمخض عنه عملية التطبيق من معطيات، هو معيار اختبارها، كما ان نتائج التطبيق ستقودنا الى استئناف النظر في بعض المناهج، وامكانية تمثلها في سياقات حضارية اخرى، فنستبعد منها او نختزل مالا يتسق مع بيئتنا، أو لايمكن توطينه ودمجه في محيطنا الثقافي.
وقد صرح شريعتي بأنه يعمل في دراساته على صياغة رؤية اجتماعية من منظور اسلامي، فمثلاً يلمح الى محاولته هذه باشارة دالة قائلا: (باعتبار تخصصي العلمي هو في علم اجتماع الدين، وهذا التخصص منسجم مع عملي، فاني اسعى لتدوين نوع من علم الاجتماع المرتكز على الاسلام والمصطلحات المستوحاة من القرآن والحديث).
الا انه في مناسبة اخرى يوضح ان دراساته لا تتناول المفاهيم المودعة في المصنفات التراثية، مثلما لا تهمه طبيعة هذه المفاهيم في وعاء الذهن، وانما تنصب جهوده على تمثلها في التاريخ، وانماط تجليها في الاجتماع البشري، فمثلاً يتحدث عن التوحيد الذي يتناوله في دراساته بقوله: (اعني بالتوحيد حضوره في التاريخ والمجتمع، لا مفهوم التوحيد في عالم الكتب، او عالم الحقيقة، فليس حديثي بشأن التوحيد الذي تحدث عنه القرآن، ومحمد (ص) وعلي (ع). مايهمني الان هو التوحيد في المجتمع والتاريخ، والأمر هكذا لدي دائماً).
ويحاول استخدام مختلف المنهجيات، والاستعانة بما يطلع عليه من أفكار في العلوم الانسانية الجديدة، ليوظفها في حقل دراساته، فلا يتردد في الاستعانة بالمعطيات الراهنة في حقل الميثولوجيا، والنماذج الرمزية، أو غيرها، يكتب في سياق استعارته تلك المعطيات : (انني شخصيا أهتم بدراسة الأساطير ولي علاقة دائمة بالأساطير والنماذج الاسطورية)، ويضيف: (منذ فترة وأنا أعمل في حقل الأساطير، لشغفي بالاسطورة أشد من التاريخ، وأحسب ان ماتشي به الأسطورة من حقائق أوفر من التاريخ، فالأسطورة حكاية وجدت في فكر الانسان، اما التاريخ فهو حقائق اوجدها الانسان، الاسطورة تحكي التاريخ كما ينبغي ان يكون).
ويمكننا ملاحظة التفسير الرمزي واستعمال الأساليب الحديثة في البحث الميثولوجي في مواضع عديدة في آثار شريعتي.
وتظل محاولة شريعتي، مع جرأتها وريادتها، عرضه لعدد من الاشكالات والأسئلة، باعتبارها توظف أدوات منهاجية متنوعة في دراسة الظواهر الدينية، من دون ان تتنبه الى ان الأبعاد الميتافيزيقية، التي تنفرد بها تلك الظواهر، ليس بوسعنا ادراكها، واستكناه مضمونها، بوسائل العلوم الاجتماعية الوضعية، مضافا الى ان طائفة من العناصر المنهجية والمفاهيم والمصطلحات التراثية المولدة في سياق نشأة وتطور الاجتماع الاسلامي، يمكن استخدامها، مباشرة، أو بعد تهذيبها، او تفكيكها، واعادة انتاجها.

الاسلام من ثقافة الى ايديولوجيا

عاش شريعتي في عصر طغى فيه صوت النضال، وتسابق المثقفون لتأييد ومساندة الانتفاضات والحركات الثورية، وفي بداية حياته اغواه بريق الشعارات، وشغف بفعل الاحتجاج والاعتراض، فتضامن مع استغاثات الكادحين، ولوعة المحرومين، وانين المعذبين، وتلاحم في شخصيته المثقف والداعية والباحث والمناضل، وذابت الحدود في وجدانه بين النموذجين، بل أمسى الوجه الحقيقي للمثقف في وعيه هو الداعية، وتحولت الثقافة الى ايديولوجيا، وتمحورت جهوده في (أدلجة الدين والمجتمع)، يقول شريعتي: (سألني أحد رفاق الدرب: ماهو برأيك اهم حدث وأسمى انجاز استطعنا تحقيقه خلال السنوات الماضية؟، فأجبته: بكلمة واحدة هي تحويل الاسلام من ثقافة الى ايديولوجيا).
ماالذي يقصده بالايديولوجيا؟ وهل يستطيع ان يحتفظ بموقفه المعرفي كباحث، في الوقت نفسه الذي يوسع دائرة الايديولوجيا، لتشمل الدين والثقافة والمجتمع؟!.
قبل الاشارة الى ذلك نقتبس نصا مطولا من آثاره، يضيء هذا المفهوم، ويحدد ملامحه في وعيه، يكتب: (الايديولوجيا عبارة عن عقيدة ومعرفة عقيدة، وهي بالمعنى الاصطلاحي، رؤية ووعي خاص يتوفر عليه الانسان فيما يتصل بنفسه، ومكانته الطبقية، ومنزلته الاجتماعية، وواقعه الوطني، وقدره العالمي والتاريخي، وفئته الاجتماعية التي ينتمي إليها، وهي المسوغة لهذه الأمور، والتي ترسم له مسؤولياته وحلوله وتوجهاته ومواقفه ومبادئه وأحكامه، وتدفعه بالتالي الى الايمان بأخلاق وسلوك ومنظومة قيم خاصة، فعلى أساس رؤيتك الكونية، وابتناء على نمط (علم الاجتماع) و (علم الانسان) و (فلسفة التاريخ) الذي تحمله، يمكن تحديد ما هي عقيدتك في الحياة، وفي علاقتك بنفسك وبالاخرين وبالعالم؟ كيف ينبغي العيش، وما الذي يجب فعله؟ أي مجتمع يتعين بناؤه، وكيف يتوجب تغيير نظام اجتماعي بشكل نموذجي، -وماهي مسؤولية كل فرد حيال المجموع؟ وماهي صراعاته، وأواصره، وأشواقه، ومثله العليا، وحاجاته، ومرتكزاته العقيدية، وقيمه الايجابية والسلبية، وسلوكه الاجتماعي، ومعايير الخير والشر لديه، وبالتالي ماهي طبيعة الانسان وهويته الاجتماعية؟ وعلى هذا فالايديولوجيا هي عقيدة تحدد الاتجاه الاجتماعي والوطني والطبقي للانسان، وتفسير نظامه القيمي والاجتماعي، وشكل الحياة، والوضع المثالي للفرد والمجتمع، والحياة الانسانية بكل أبعادها، وتجيب عن الأسئلة: (كيف تكون؟) و (ماذا تفعل؟) و (ماذا ينبغي فعله؟) و(كيف يجب ان نكون؟).
لكن ماهي حدود الايديولوجيا؟ وماهي علاقتها بالعلوم والمعرفة التقنية؟ يجيب شريعتي: (الايديولوجيا تهدي للانسان ماتمنحه له الامكانات التقنية تماما، ماالتقنية الا مجموعة الجهود الانسانية الرامية الى توظيف الطبيعة لتحطيم هيمنتها وجبرها، وفرض احتياجاتنا عليها، الايديولوجيا تقنية يستعين الانسان بها وبالمعرفة لتوظيف التاريخ والمجتمع حسب مايشاء).
ويتداخل مفهوما التقنية والايديولوجيا لديه، بنحو تصبح (التقنية عبارة عن فرض ارادة الانسان على قوانين الطبيعة، او هي استخدام العلم من قبل الارادة الانسانية الواعية، للوصول الى مبتغاه، العلم هو مسعى انساني لفهم الطبيعة واكتشاف مافيها، والتقنية هي سعيه لتطويع الطبيعة واستخدامها، واصطناع ماليس فيها، وفقا لهذا التعريف تكون الايديولوجيا بالمعنى الأخص للكلمة، تقنية بالمعنى الأعم للكلمة).

روايـــات أولى في سنـــوات متقاربـــة

محمد الحمراني

في السنوات الماضية، كثر الحديث عن ضرورة ظهور رواية عراقية، تؤسس لاشتغالات جديدة، تنطلق من النقد والتأمل والتحليل ورفض السير خلف الأطروحات الأيدلوجية، وكنا نقرأ بين حين وآخر في حوارات مع نقاد او كتاب في الخارج او في الداخل ترقبهم لظهور روائيين جدد يدونون عوالمنا المتشابكة بالحساسية نفسها التي خرج بها كتاب اميركا اللاتينية الى العالم.. بأعتبار الوضع التاريخي للعراق خلال السنوات الماضية، لايختلف كثيراً عما حصل في بلدان هذه القارة ان لم يكن اسوأ منها ولكن أفق حرية الكتابة المعدوم ضيق الخناق على كتابنا وحاول ان يسحبهم الى جهة مناقضة لعالم الخلق وجمالياته، فحين يبدأ الروائي الشاب بحثه في تأريخ الرواية العراقية يجد ان رواد هذا الفن ونتيجة لبحثهم عن الأفق الرحب، عاشوا في المناقي ومنهم من قتلته الغربة كالروائي غائب طعمة فرمان ومنهم من ابتعد قسريا وأمضى حياته في المنافي كالروائي فؤاد التكرلي.
لم تدرك الرواية العراقية الحرية خلال أكثر من خمسة وثلاثين عاما مضت وولد ضيق أفق الكتابة هجرة عدد كبير من الأدباء الى الخارج وبدأت تتفاعل في الشارع الثقافي حوارات جادة حول الرواية وضرورة وجودها كتعويض عن الجمال والتاريخ والدراسات الانسانية، من اجل اظهار عوالم مختلفة يرصد العديد منها وحشية محيطنا، لتنبثق ظاهرة هي الأولى من نوعها في المشهد الروائي العراقي متمثلة بظهور أسماء من خارج المشغل السردي تسعى بجد لكتابه روايات مختلفة، فمنهم من قدم من حقل النقد والبعض الاخر قدموا حقول: (الشعر، السينما، البحث) ورغم التشتت بين العديد من الكتاب كنا نسمع عن ظهور أسماء روائية جديدة بدأت من القمة، وهذا ماحصل مع الروائي سليم مطر الفائز بجائزة الناقد عن روايته (امرأة القارورة) والذي لم يسبق له ان نشر عملاً روائيا داخل العراق، وهذا ماحصل أيضاً مع الروائية بتول الخضيري التي ترجمت روايتها (كم بدت السماء بعيدة) الى أكثر من ثلاث لغات وحققت شهرة واسعة لكاتبتها، ومن الروايات التي عبرت عن صوت روائي مميز رواية (رقصة الطائر المذبوح) لحسن قاسم الفائزة بجائزة الشارقة للرواية، وبعد ذلك فازت الرواية الأولى لمحسن الرملي المعنونة (الفتيت المبعثر) بجائزة جامعة أركنسا الأمريكية بأعتبارها أفضل عمل أجنبي مترجم الى اللغة الأنكليزية وبعد ذلك فازت رواية (بابا سارتر) لعلي بدر بجازة ابو القاسم الشابي للرواية العربية وفي أمتداد ظهور هذه الروايات ظهرت اعمال روائية أولى ايضاً منها رواية (اعجام) للروائي سنان انطوان وكذلك رواية (الطائر والجمجمة) لناظم محمد العبيدي ورواية (البلد الجميل) لأحمد سعداوي وكذلك رواية (الفريسة) للؤي حمزة عباس ورواية (النقطة الابعد) لدنى طالب ورواية (نصف القمر) لنوزت شهدين و(الهروب الى اليابسة) لكاتب هذه السطور وكذلك قرأت اعمالاً روائية مخطوطة منها (حياة ثانية) لقاسم محمد عباس و(يحدث في البلاد السعيدة) لضياء الخالدي.. ان ظهور روايات اولى لكتاب جدد يكشف عن وجود حساسية جديدة في الكتابة السردية في العراق، فالمشهد الروائي العراقي.. لسنوات طويلة ظل تابعا للأفكار السياسية ومروجا لها ولم يكن بالامكان نقدها او السخرية منها وهذا ماجعل العديد من الروايات المذكورة تفلت من ظلال الثقافة الرسمية بكل ماتحمل من تشنج وخوف واملال ولكنها تتصالح في الكشف عن مجتمعات صغيرة في النسيج العراقي وتدخل الى مناطق الهامش وتسخر مما يحيطها، فرواية علي بدر تتهكم من كيفية تلقي الثقافة الغربية في مجتمعاتنا وعن الرواية الجديدة يقول علي بدر: (الرواية من جهة ادائها الثقافي وتمثيلها لم تعد (حدوتة) كما هي عليه في السابق... كما انها لم تعد توثيقاً فجاً وتقليدياً للوقائع والاحداث ولم تعد منشغلة بشكل نرجسي كما كانت بنفسها فالوظائف التخيلية والتمثيلية والايحائية أصبحت أداة بحث، اداة استكشاف للعالم وللتاريخ وللثقافة وبالتالي أخذت تقترب من العلوم الانسانية باستعارة أدواتها، فالرواية اليوم.. هي في خضم التوتر الثقافي العام.. اصبحت هي الثقافة بأجمعها).. في رواية بتول الخضيري نجد الأزدواجية، التي تعيشها طفلة من اب عراقي وام أجنبية.. لتكون الطفلة العين الراصدة لهذا الزواج وكاشفة عن عمق الأختلاف بين الهويات، اما احمد سعداوي فيتحدث في روايته عن مجتمع مدينة الثورة في بغداد... مجتمع صغير داخل مجتمع كبير وتأثير الرواسب الريفية عليه، لنصطدم بعالم هجين من خلال عدد كبير من الحكايات.
اما سنان أنطون فهو يرسم لنا ملامح المجتمع المسيحي ومؤثرات الحروب عليه في فترة الثمانينيات، فيما نجد في رواية محسن الرملي أحاديث الهامشيين عن الحرب وكوارثها عليهم ضمن أطار قرية في محافظة الموصل، فنقرأ في مكان ما من الرواية مايلي: (اتسمت مقبرة قريتنا بفضل جثث ابنائها الملفوفة باعلام الوطن واعلام اخرى ترفرف فوق شواهد القبور.. بحيث استحالت مقبرتنا القديمة الى غابة من الرايات تنوح تحتها الأمهات كل خميس وراح التلفزيون يعيد عليهم تمثيلية الخنساء ست مرات في اليوم قبل الأكل وبعد الأكل وحين فر قاسم من الجبهة.. تبعه سعدي قائلا (ليست حلوة) ثم تلاهما اسماعيل باكثر من مبرر كاذب، شرع التلفزيون بأمطارهم بالاف افلام الكاوبوي اذ الرجولة والقتل ايسر من تقشير الموز).. انها روايات تحمل اخباراً عن الماضي والحاضر... كتبها روائيون جدد على تاريخ الرواية العراقية ولكن في الأغلب تكشف عن وعي فني يعلن عن ظهور جيل روائي عراقي يستحق الدراسة والمراقبة.. وهذا لم يحصل سابقاً لأننا كنا نقرأ اعمالاً روائية متفاوتة في أزمنة صدورها.. أي كل خمس او ست سنوات نقرأ رواية ولكن لم يحدث ان ظهرت موجة روائية في العراق.. على الرغم من عدم وجود تعارف مسبق بين اغلب الكتاب الذين ذكرتهم ولكن مايجمعهم... انهم كتبوا رواياتهم الاولى في سنوات متقاربة ولكل واحد منهم مناخه الكتابي الخاص ورؤياه ولكن كتاباتهم تفصح عن سعيهم الجاد لفهم التاريخ للدخول من خلاله الى تاريخ الرواية.

علي بدر

بتول الخضيري

ضياء الخالدي

منفـــى الممثل العـــراقي ودولتـه الـــوليـــدة

عبد الخالق كيطان

علينا التأكيد بادئ ذي بدء بأن اختيار المنفى شأن شخصي قد تسهم في صياغته عوامل شتى من ضمنها العامل السياسي، ومع ذلك فإن الشأن الشخصي هذا يتحول إلى صرخة احتجاج كبيرة إذا ما كانت الشخصية عامة ومعروفة مثل شخصيات الفنان والأديب والسياسي. وانطلاقاً من هذا الهم الوطني فقد اختار عدد كبير جداً من ممثلي السينما والمسرح والتلفزيون في العراق المنفى أيام النظام الديكتاتوري السابق وكان بإمكانهم قبل ذاك العيش في وطنهم منفيين بعيداً عن الأضواء أو في أحسن الأحوال ديكوراً يتم بهم ومن خلالهم تجميل المشهد العراقي القبيح ما داموا يقاومون فكرة العبودية التي كانت دوائر النظام السابق تروج لها ليلاً ونهاراً.
وقصة الفنانين العراقيين في المنافي والمنائي قصة طويلة تستحق وقفة أطول من هذه ومن شهود رافقوا تلك التجربة النادرة في تاريخها الذي يمتد لأكثر من ثلاثة عقود من عمر الزمن العراقي، ولكننا هنا نتقصد التذكير بجهود هؤلاء الفنية والوطنية على السواء آملين في أن تبادر الجهات المعنية في العراق برفع الظلم عنهم وإحاطتهم بالعناية والاهتمام الذين يستحقونهما، أقلها لجهة موقفهم الوطني المشرف.
ومن المعلوم أن هجرة المثقفين العراقيين، وبضمنهم الفنانون العراقيون، كانت قد بدأت منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي، حيث ضجت المنافي والمنائي بالخبرات الفنية العراقية بعدما ضيق النظام عليهم في العراق. ثم كانت الحرب العراقية الإيرانية لتكمل الدورة فيما شهدت السنوات التي تلت حرب احتلال الكويت ومن ثم تحريرها من الجيش الصدامي هجرة أوسع بكثير من سابقتيها، حيث وصل عدد كبير من الفنانين العراقيين إلى دول مختلفة من العالم، بعضهم كان قد تستر بصيغة العقود التدريسية في غير دولة عربية، أشهرها ليبيا واليمن، والبعض الآخر هاجر إلى الدول الأوربية وأمريكا وكندا بمعونة المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة.
كان من أبرز الفنانين العراقيين المهاجرين منذ عقد السبعينيات وبداية الثمانينيات كل من الفنانتين الكبيرتين: زينب وناهدة الرماح، ثم الفنانة القديرة غزوة الخالدي، ومن المخرجين الفنان جواد الأسدي والفنان فاضل السوداني، وقد حصل الأثنان على شهادات عليا في الدراما ولكنهما قررا عدم العودة إلى وطنهما ، كما هاجر في هذه الفترة الفنان المعروف قائد النعماني وكان في ذروة تألقه الفني، والأمر ينطبق على الفنان عبد المطلب السنيد وآخرين.
ولقد شهد عقد التسعينيات الرهيب خروج موجة جديدة من الفنانين، واللافت أن الموجة الجديدة هذه لم تستثن الممثلين الكبار من جيل الرواد، حيث هاجر الفنان الكبير خليل شوقي والمعلم القدير بدري حسون فريد والفنانة الكبيرة سهام السبتي. استقر الأول في هولندا حيث تعيش ابنته الفنانة مي شوقي، وزوجها المخرج عبد الهادي الراوي، وكذلك ولده الفنان فارس، أما الفنان القدير بدري حسون فريد فاختار التدريس في الصحراء الليبية ثم لم يجد أمامه بداً من العبور جهة المملكة المغربية ليدرس في واحد من معاهدها ويعيش عيشة الكفاف والضنك على أن يعيش عيشة الخنوع في بلاده ، فيما قررت الفنانة الرائعة سهام السبتي أن تلتحق بأحد فصائل المعارضة العراقية في عمان وتعمل في واحدة من أنشط إذاعات المعارضة العراقية حينذاك، وهي إذاعة المستقبل، قبل أن تشد الرحال للقارة الأسترالية حيث تقيم اليوم.
كان هؤلاء يمثلون باقة رائعة من ممثلينا الكبار، ولا أعتقد أن ثمة عراقياً واحداً لا يتذكر دوري خليل شوقي وبدري حسون فريد في الذئب والنسر وعيون المدينة، ولا أعتقد أيضاً أن بيننا من ينسى ذلك المشهد التلقائي البديع الذي جمع بين سهام السبتي والفنان الخالد سليم البصري في تحت موسى الحلاق.
واستمرت الهجرة ليلحق بهؤلاء فنان كبير آخر هو غازي الكناني، الذي عرف بأدواره الشعبية في السينما والمسرح والتلفزيون ليستقر به المقام في القارة النائية أستراليا.
أما جيل الممثلين الشباب الذين اختاروا المنفى والهروب من قمقم القمع فهم أكثر من ان نعدهم في هذه العجالة، وإن كنا خصصنا هذه الورقة للفنانين الرواد فقط لتأشير فداحة خسارتنا بهم. وهؤلاء هم رموزنا الوطنية الذين منع النظام السابق تداول أخبارهم حتى على مستوى المجالس الخاصة، باعتبارهم مرتدين وخونة وما إلى ذلك من خداع.
لقد شهدت المنافي التي يعيش فيها المبدعون العراقيون دائماً رحيل المبدعين العراقيين الواحد تلو الآخر بسبب الغربة وقسوتها وعامل السن وما إليه، وكان الفنان الراحل سامي السراج واحداً من أبرز ممثلي العراق الذين قتلتهم تلك الغربة، ولولا عناية الله يوم وفاته حيث كان يوجد في العاصمة الأردنية عمان وفد فني عراقي يرأسه الشاعر فاروق سلوم، مدير عام دائرة السينما والمسرح حينذاك، والجهود المخلصة التي بذلها والفنان محسن العلي وباقي أعضاء الوفد من أجل ترتيب وضع لدفن الراحل في بلده العراق، أقول لولا تلك المصادفة لدفن جثمان السراج في بلاد الغربة كما هو شأن العديد من مبدعينا الذين ماتوا حسرة في منافيهم ومنائيهم. وسامي السراج ممثل غني عن التعريف عرفه الجمهور العراقي من خلال عشرات الأدوار التلفزيونية والمسرحية والسينمائية الرصينة فحاز على حبهم واحترامهم، ولكنه من جانب آخر، وشأنه شأن العراقيين أجمع، كان يعاني من شظف العيش في وطنه وضيق فسحة الحرية وعيون الرقباء المتكاثرة فقرر الخروج من العراق نهائياً ليلتحق بفصائل المعارضة العراقية حيث كان صوته المعروف يحرض الأهل على الانتفاض ضد الطاغية وحكمه الرهيب، وظل منتجا في حقول المعرفة حتى وافته المنية.
ترك سامي السراج عدداً كبيراً من المقالات والدراسات حول الفن العراقي كما نشر في منفاه كتاباً عن الفنون العراقية السمعبصرية وكان يطمح الى العودة إلى بغداد لإكمال مسيرته الفنية لولا المنية التي وافته خارج بلاده التي يحب ويعشق.
وللحديث صلة مع فنانة الشعب زينب التي توفيت في منفاها فلم تجد غير بضعة أشخاص يقرأون على روحها الطاهرة سورة الفاتحة ولتدفن في مقبرة الغرباء في السويد، وكم سيكون باهراً تشييعها لو تم في بلدها وهي الفنانة المعطاء التي يتذكرها الجمهور بالرغم من مرور سنوات طويلة جداً على قرارها مغادرة العراق لأسباب سياسية. فيما تعاني الممثلة البارعة ناهدة الرماح من وضع صحي ونفسي مؤلم لم يجد معه الفنان جواد الأسدي غير كتابة مسرحية وأخرجها بنفسه بعنوان: آلام ناهدة الرماح، أرادها تحية لها في ظروفها العصيبة بعيداً عن الوطن.
وبالرغم من كل دعوات التعتيم التي كان أزلام النظام السابق يقودونها ضد الفنانين العراقيين المقيمين خارجه فإن الحقيقة تقتضي التذكير بأن أغلب هؤلاء المبدعين كانوا يجتهدون قدر استطاعتهم في العمل الفني ، فالممثل العراقي كان يناضل من أجل تدبير لقمة العيش في بلاد الغربة وفي الوقت ذاته يجتهد في أن يظل وفياً لجمهوره ومحبيه حتى وإن قلوا في بلاد الغربة. والكثير من الممثلين العراقيين عملوا طويلاً مع صفوف المعارضة العراقية، وكانت صحف تلك المعارضة تركز الأضواء على مواقفهم الوطنية بين فترة وأخرى، وطيلة تلك السنوات لم أقرأ تصريحاً أو حواراً مع واحد منهم يتهجم فيه على زملائه الممثلين داخل العراق ذلك لأن الفنان المنفي يعرف تماماً أية ظروف لا إنسانية تلك التي يعيشها الزملاء داخل العراق كما يدرك أن الغالبية العظمى من المشتغلين بالوسط الفني العراقي كانوا بلا حول ولا قوة أمام ما يجري من تخريب منظم للبلاد والعباد، ناهيك عن الصلات الوثيقة التي جمعت بينهم بالرغم من اختلاف الأمكنة وتباعدها.
إن العراق الجديد الذي يتشكل الآن هو عراق أبنائه قبل أي شيء آخر، ومن هذا الباب ندعو مخلصين إلى أن تبادر وزارة الثقافة العراقية لدعوة الممثلين الكبار: خليل شوقي وبدري حسون فريد وسهام السبتي وناهدة الرماح وجواد الأسدي وفاضل السوداني وغزوة الخالدي وقائد النعماني وغازي الكناني (ومن أغفلهم الكاتب لجهل) باعتبارهم من جيل الرواد وما بعد الرواد وتكرمهم في وطنهم آخذة في نظر الاعتبار موقفهم الانساني والحضاري المتمثل بالوقوف في وجه الديكتاتورية لسنوات طويلة غير مبالين بدعواتها الرخيصة لمعاقبتهم ومعاقبة ذويهم، ومنع الأعمال الفنية التي مثلوها من الظهور على شاشة التلفزيون ومنع الصحف المحلية من تداول أخبارهم ونشاطاتهم. ولعل مثل هذا الموقف الوطني يعطي دلالة واضحة على جدية التغيير الحاصل في العراق ورغبته بالانفتاح على أبرز مبدعي العراق الذين احتضنتهم المنافي الكثيرة. وفي السياق نفسه نرفع صوتنا مجدداً مع الأصوات التي طالبت بنقل رفات المبدعين العراقيين من مقابر الغرباء المنتشرة في العالم وإعادتها إلى بلادها من خلال تأسيس مقبرة عراقية في بغداد تسمى بمقبرة المبدعين العراقيين. وكل هذا في تقديرنا يمثل أقل ما يستحقه المبدعون العراقيون جراء مواقفهم الوطنية المعروفة وإبداعهم الإنساني النبيل.

جواد الاسدي

ناهدة الرماحي